النَّعْش

في عز الصيف. انطفأت نقرة الظهيرة على خرطوم جدتنا، وجلسنا أمام البيوت على حصائر من البلاستيك، نشرب الشاي؛ عندما جاؤوا زمرًا، أرجلهم أعرض من الحطب، وفوق رؤوسهم البُوم. بدوا كوحوشٍ لها رأسين، تمشي على أربع، تعفر الهواء وتحيل الزهور ترابًا. التقطنا الفؤوس والشوم بينما حمل الأطفال المناقر. لم يتزحزح أحدٌ منا. نراقب الطريق وأعيننا في نصف رأسنا. كلما اقتربوا تنفلت – من أيدينا – الأسلحة، وتنبهنا النساء – من خلفنا – أنهم بشر. رأيناهم مرتعشين، أنفاسهم متقطعة وملابسهم مغبرة. ضَيَّفْناهم في المندرة الكبيرة، وسقعنا لهم ماء المِعْين. وعرفنا أن قريتنا هي الوحيدة الباقية، وهي الملاذ الأخير. قالوا لنا إن هناك وحشًا حط على بلادهم. سلعوة، تزحف فتطيّر التراب من تحتها، وتدخل البيوت والقبور. قالت امرأة: إنها ليست سلعوة، بل نجمًا سقط من السماء، داخله وحش برأس طويل، يمسك سوطًا ويضربه في الطين،

فيسوّد الأرض ويجلد ظهور الرجال. البنات قالت إنها أمنا الغولة والنساء قالت إنها أم قويق؛ نسـجت من الأرض سـحابة صفراء لتختبئ خلفها، وعندما يـأتي الليل تدخل البيوت وتخنّق كلَّ من فيها. لكن الرجال قالوا بحكمة "ربـما يكون زلزالًا هز الأرض وابتلـع البيوت ومن يعمرونها"، لم ير الناجون شـيئًا والذين رأوا لم ينجـوا. تضاربت الأقوال، وبتنا ننتظر المجهول القادم.

ثلاث ليال ونحن نسـتقبل الوافدين من البلاد البعيدة. لم تتسـع لهم المندرة ودوّار المناسبات، فأقمنا سرادقًا كبيرًا وسقفناه بالجريد والقش، ونثرنا فوقه الطين وأقراص الجلة. ولما زادت أعداد الناس، بات كل فرد يصطفي منهم من يصلح للأخوة، فيتقاسم الدار والأرض. بعض الوافدين فضّلوا الرحيل إلى بلاد أخرى وراء النهر. وفي اليوم السابع استقرت الأمور، ولم نسـتقبل وفودًا جديدة. ولم يغادر البلدة أحد من أهلها. خرجنا جميعًا إلى الأرض، نسمدها ونعزقها وننقر غيطان ذرة جديدة. نثرت النساء بيوت الملوخية، وزرعن الفاصوليا وشـتائل الكرنب. تبادل الأطفال حكاياتهم عن المخلوق الغريـب. كان الجميع يجلس أمام السرادق الكبير، يشربون الشـاي، عندما طل برأسـه للمرة الأولى من فوق أول بيوت البلدة. كان ثعبانًا عملاقًا، بزبيبتين على جبهته. شـجاعًا، ترك الناس يهجرون بيوتهم ثم التف حولها وابتلعها كاملة، ونزل إلى الأرض في سلام. لم نر أصحاب البيوت ثانية، استمروا في الهرب وقفزوا في النهر، مع البهائم التي هاجت

وهدمت جدران المرابط. وفي المسجد، ارتفع صوت المؤذن ليجمع الناس في الجرن الكبير، فهرع الجميع وبأيديهم الفؤوس والسكاكين. لا يعرفون كيف النجاة. الشباب يقترحون المواجهة، والشيوخ يفضلون الهرب. اقترح أحد الشباب حفر خندق عميق، يحميهم من شر هذا الثعبان، هنا تدخلت. اقترحت أن ننصب فخًّا، نختار الأقوياء ونسلحهم بالبنادق والفِرد، ويلبدون في أبراج الحمام، وما إن يظهر حتى يبندقونه في رأسه، وننهي هذه البلوى. على الفور تطوع تسعة رجال غيري، وسهرنا طوال الليل نخطط ونراقب الطريق.

في الصباح تسللنا وبنادقنا فوق أكتافنا. كنا حذرين. بالكاد نلمس الأرض. لكنها اهتزت فجأة، وسمعت دعوات تعلو من كل مكان وقرآنًا يتلى عندما خرج الثعبان ولامس السماء. لم أستطع النظر في عينيه طويلًا، كانتا وحشيتين، وفيهما مقبرة كبيرة. نفخ الثعبان في البيوت والأبراج فانهدمت. كنت ألهث، ولا أرى من السماء سوي زبيبتين، جسدي مغروس في الأرض والتراب ينهال من فوقي، لا أستطيع السعال. خشيت أن أبصق روحي، لو جاءني ملك الموت الآن، لو أتاها بورقة من الجنة... شعرت بنمل يأكلني، كنت وحيدًا، أسمع ضوضاء الأمس في رأسي، وصلوات تأتي من بطن الأرض، ويد تنبش التراب من فوقي، من ربي؟ ما ديني؟ ومن النبي الشافع؟ كان قويًّا، انتشلني من الأرض ورفعني على كتفه. غسّلني بالماء البارد. اسمه سيّد، رفاعي جاء من أرض بعيدة، على حس هذا الثعبان، وصار أملنا الوحيد في الخلاص.

عرفت كرامات سيّد ومناجاته للثعابين والأولياء. كان صغيرًا عندما رأى كبشًا يطارده، يسير خلفه في الطرقات، بين الأشجار. وفي العتمة، اقترب منه وتمسح ببنطاله، ثم دعاه إلى مقام أحد الأولياء. كان يعرف هذه الأصوات، يسمعها دائمًا عندما يقترب من الأرض، ويخلد إلى النوم. لم يشعر بجسده عندما تمايل معها، رأى أناسًا من نور يتوسطون حلقة من العارفين، ينشدون، يصفقون، يرقصون. حتى أتاه أحدهم، ولقنه العهد في حضرتهم. على مر السنوات، حوى ثعابين كثيرة، ثعابين بثلاثة رؤوس، وثعبان برأس قطة، وثعبان خُتم على جلده اسم الله، لكنه لم ير ثعبانًا عظيمًا كهذا. يخنق الأرواح وينفخ في الأبراج ويبتلع البيوت والقبور. كنا نسير في البلدة على مرأى من الناس. لم يسألني أحد منهم عن الباقين؛ عرفوا وحدهم أنني الناجي. مشوا خلفنا إلى الجرن الكبير، وبأمر من الرفاعي تسلقت نخلة، وأذنت في الناس: الله أكبر الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله، ردد سيد الأذان من بعدي، أشهد أن محمدًا رسول الله. أتت الناس من كل صوب، ترتص للصلاة، حي على الفلاح، والفلاح في صلاة سيد. نزلت من النخلة ووقفت في الصف الثالث، كبر سيد ثم أمسك فأسًا وضرب الأرض ثلاثًا. كانت عنيدة، لم تنصدع ولم يخرج منها نور. بدأ في التمايل فتمايلنا في صفوفنا. نفخ في ناي مصنوع من البوص. فأمنّا وراءه. كان صوته يعلو فوق الريح، يجذب السحالي والثعابين الوليدة إلى أوعية الفخار، في دائرة كان مركزها. ركع ثم سجد ثم نفخ في تراب الأرض، فعلنا جميعًا المثل، ولم يرفع أحدنا عين عندما انقض الثعبان والتهم رأس سيّد، وظل

جسده واقفًا يتمايل قبل أن يهوى. هنا عدونا هاربين وراء النخيل، ورأينا الثعبان يعود برأسه الكبير إلى تلك البقعة البعيدة.

لم تشرق الشمس منذ التهام رأس سيّد. تصلي الأرض والنساء من أجل شعلة نار في يد ليلى. تنير الطَّاقات والجدران، وتغني مع النساء في حضرة أزواجهن، تهتز مع خصور العذارى وهن يملأن الأزيار. كنا نستمع إلى صوت ليلى ونتعسَّس الجدران. لم يهرب من الرجال أحد، رغم السواد الذي عمّم رؤوسنا، وجعل خوفنا من الثعبان يمنعنا عن قضاء حوائجنا.

ليلى، ابنة أبي، تحب الجلوس على الجرف، في طفولتي أنتظرها مع الناي، يغنيان ويتبادلان الحكايات، ويطرق الليل الطبول. أما الآن بعدما فقدتُ الناي أجلس منهزمًا، أراها تأتي بطبق من الحساء، ومشنة فوق رأسها تحوي الخبز والبصل. تحاول الابتسام رغم ذلك. نجلس على الجرف، وأستمع لحكاياتها عن نساء البلدة، ومحاولاتهن لاستعادة رجالهن. نورا، ابنة العم، فقدت زوجها هناك، لكنها لا تزال تسقيه من مائها، وتشعل الشموع لهما. تقول "كان يحب الشموع وقمصان النوم القصيرة". يحمر خديّ ليلى لكنها تتابع الحكايات، في الطريق إلى البيت، والليل كان صامتًا. رأيتني عند نخلة الصلاة، ورأيت ليلى مع حشد من النساء، عندما خرج الثعبان برأسه الكبير. حوطناه بخوف ثم ركعنا، دار بين الصفوف، شم روائحنا، وكلما فارق صفًّا حمد المصلون ربهم وكبروا، بينما تخفق قلوب الآخرين. من سيختار الثعبان. لا أحد يعلم.

"على أحد أن يموت"

صحوت على صوت جدي، وصراخ النساء وهلع الرجال، الثعبان يريد قربانًا. من منا سيموت قريبًا؟ البلدة كلها رأت نفس الرؤيا. انتشر الفزع بين الجميع، وخاصة بين النساء والشيوخ، ربع سكان البلدة من المعمرين. نسيَنا الموت ونسِينا مكان القبور. بركة العمر والقلوب الطيبة. لم يمت أحد منذ عشر سنوات. عشرين، ثلاثين. خلاص! خلاويص. خرج الثعبان علينا ورأيناه جميعًا في الرؤيا. نراقب المسنين، نتأمل تجاعيدهم الكثيرة وخربشات الزمن؛ خطوطًا في جبين جدي، طرقًا كثيرة، متاهات أضيع فيها. أحيانًا أتمنى أن يموت العجزة والمسنين؛ يجلسون على المصاطب ينتقدون المارة، ويتناثرون في الطرقات، يلعبون السيجة، لا يفلحون الأرض ولا تأخذهم المدينة. عرفت أن شباب البلدة تراودهم مشاعري أيضًا، نشفق على المرضى والمجاذيب، ولا نتمنى الموت لأنفسنا. لم نرَ الحياة على وجهها الحقيقي بعد، لم نلبد في شقوقها ولم يحمل أحد منا آخر عنقوده. فماذا ينتظرون؟ لماذا لا يتركون أرواحهم تصعد إلى السماء، ويهدون البلدة طريق النجاة؟ لم يتمنَ أحدنا أن يخلّد في الدنيا، نريد أن نعيش نصف ما عاشوه فقط. كل ساعة كنا نعدهم، مرة واثنين وثلاث مرات فنجدهم على حالهم، لم ينقصوا واحدًا. ومع كل سعلة تخرج من صدر جدي آمل خيرًا، ومع كل سعلة تخرج من صدر أجدادهم يأملون خيرًا. بدأت شهوة الدم تسكن صدور الشباب، لماذا ينتظرون؟ إذا لم يستسلموا لمصيرهم سينفذون

إرادة الله بهم، سيقتلون أحدًا. أرى ظلالهم تمسك بالسكاكين والخناجر أسفل الأشجار. أرى أعينهم تشتعل بالدم، أنضم إليهم، نتربص جميعًا خلف الأشجار والعشش، أحضر أحدهم شوالًا من الخيش، وعقدنا النية على قتل أحدهم. من يمر الآن منهم سيكون القربان، سنقيم له مولدًا كل عام، ونعده من أولياء الله الصالحين. سمعنا جميعًا صرخة، صرخات تأتي من أهل البلدة، فعرفنا أن أحدًا غادر الحياة أخيرًا.

كان وجهها كالثلج، تستلقي بجسدها الخشبي على أريكة جدي، وأربعة من النساء يغسلونها بماء الورد. ويمشطن خصلات شعرها في دلال. ليلى الجميلة، طفولتي التي أعرفها، غنوة الجرف والناي، صوت الليل في صدري، امرأة تحشي فمها بمنديل أبيض، ويحزمونها من وسطها، ومن رجليها، ومن صدرها. كلما نظرت إليها اختنقت. التراب يتسرب إلى أنفي وفمي، أسعل، أبكي وأنا أحمل نعشها، والرجال من خلفي يحملون شعلات النار، والنساء تشق صدورهن ليخجل ملاك الموت. وصلنا إلى نخلة الصلاة، أمسكت فأسًا وضربت الأرض ثلاثًا، ووضعت ليلى أمامي، أقمت صلاة الجنازة. لم أرفع رأسي عندما ظهر الثعبان في التكبيرة الثالثة، ونزل بها أسفل الأرض. احتضن ليلى الجميلة وأكل لحمها. سمعت صرختها قبل أن تغيب للأبد. لم يخرج الثعبان بعدها، كلما جاع ألقينا في بطن الأرض ميتًا جديدًا.

صرنا ننجب الأطفال من أجل ذلك.